***النزعة التأملية في شعر الشابي***

***التأمل في الغاب - أنموذجا -***

**Tendance contemplative dans la poésie de Chebbi**

**Méditation dans la jungle** **- un modèle -**

**د. تجيني أم الخير**

**دكتوراه في الأدب العربي (كلاسيك)**

**تخصص: أدب عربي حديثكلية الآداب واللغات والفنون-**

**جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس**

[**tedjini.oum.elkheir1983@gmail.com**](mailto:tedjini.oum.elkheir1983@gmail.com)**البريد الالكتروني**

**الملخص:**

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن ماهية النزعة التأملية في أدب الشابي على اعتبار أنها سمة بارزة طبعت الحياة الإنسانية وانعكست على الأدب بصفة عامة،والشعر الرومنتيكي بصفة خاصة.

و من هنا وُلِدَت فكرة البحث للكشف عن أهم ملامح النزعة التأملية استنادا إلى التأمل في الغاب باعتباره عالم مثالي يتوق إليه الشاعر فيه الحرية والجمال المنشود و السعادة، و مصدر إلهام و تأمل.

الكلمات المفتاحية: التأمل، الغاب، الشعر، أبو القاسم الشابي.

**Rèsumè:**

Cette étude cherche à découvrir la nature de la tendance spéculative dans la littérature Chebbi, considérant qu'il s'agit d'une caractéristique importante qui a caractérisé la vie humaine et qui a été reflétée dans la littérature en général. Et la poésie romantique en particulier.

De là est née l'idée de la recherche pour révéler les caractéristiques les plus importantes de la tendance contemplative basée sur la méditation sur la jungle comme un monde idéal que le poète aspire à la liberté, la beauté désirée, le bonheur, et une source d'inspiration et de contemplation.

Mots Clès: Mèditation، jungle، Poèsie، Chebbi.

**تمهيد:**

تفضل الإنسان عن سائر الخلق بالعقل وقوة التفكير، وعمق التأمل، إذ يعد التأمل من أبرز آليات العقل التي من خلالها يتواصل الإنسان مع الوجود، وكان له الفضل العظيم في بروز جميع العلوم، والميدان الأدبي من الميادين التي ازدهر فيها التأمل وبان.

إذا ما تحدثنا عن التأمل ومعناه فلغةً هو: "التثبت، وتأمل الرجل: تثبت في الأمر ونظر".(ابن منظور، د.ت، ص32).

والتأمل في الأدب هو التفكر العميق الذي يصل إلى درجة التحلل مع الخيال، بحيث تسمو الروح على كل محسوس، باعتماد الطبيعة وتشخيصها، وهذا الانتقال لا يكون بمثابة هروب من الوجود، وإنما يكون على شكل اندماج وتحلل في روح الطبيعة، من أجل تحقيق الراحة والاستجمام الروحي.

والتأمل يقوم على الاضطلاع الواسع، والنظر الثاقب من أجل بلورة فكرة أساسها الخيال وبنائها الطبيعة، وأهمية الأدب التأملي تكمن في اهتمامه بالإنسان ومجالات حياته.

ومن هنا كانت التجربة التأملية من أرقى التجارب الأدبية، إذ تتدخل في تشكيلها آليات العقل الإنساني بساحاته الشعورية وجمالية الروح، فالمتأمل يكون حكيما بفلسفته، ورقيقا في لغته الشعرية، ومتصوفا في نزعته.( صابر عبد الدايم، 1993، ص41).

**التأمل في الغاب:**

نشأ الشعر من الطبيعة وفي أحضانها ترعرع.(حميدة البلداوي، 2011، ص155). فلا يوجد أعظم من تصوير وتمثيل الشعر للغاب، وذلك لاعتماده الإبداع والخيال، فالجمال الإلهي المجسد في الغاب غذى قريحة الشعراء، ووضعهم أمام مصطلحات ومفردات تنتمي جلها إلى الحقل الصوفي وتخدم الرياضة التأملية.

يقول ثروت عكاشة: « شغلت الحديقة فكر متصوفي الإسلام، أكثر مما شغلت فكر غيرهم من المسلمين، فهي مفزعهم الأول في الحياة الدنيا، حلمهم الكبير في الآخرة».(إبراهيم منصور، 1999، ص68). تمجيد مطلق خصه المتصوفة للطبيعة، التي تعتبر رمز يتجلى من خلاله الجمال والحب الإلهي، فكل ما تحتويه الطبيعة من غاب وورود وأزهار ووديان وشلالات وجبال وهضاب، حتى سكونها وغضبها جميعها تعبر عن الجمال والصمود والمحبة والخلود والفناء، مظاهر طبيعية يتجسد من خلالها الجمال المطلق الذي يمثل الجمال الإلهي، ويجسد قدرة الخالق القادر، تثير في الذات رضا وحب وإجلال وتقديس لهذه الطبيعة الفذة، وقد امتزج تمجيد الطبيعة بحب مطلق للذات الإلهية، فنجد (ابن فارض) يصور لنا حبّه للطبيعة فيقول:

تَرَاهُ إنْ غابَ عَنِّي كُلُّ جـــارِحَةٍ

في كـــلّ مَعْنى لَطيفٍ رائِقٍ بَهِجٍ

فِي نغمةٍ العُودِ والنّايِ الرَّخِيمِ إذَا

تألَّفَـا بَيــْن ألْحــــانٍ مِنَ الهَـــرّجِ

وَفِي مَسارِحِ غِزْلان الخَمائِلِ في

بَرَدِ الأصَائِلِ والأصْبَاحِ في البَلَجِ

وَفِي مَساقِطِ أنْداءِ الغَمامِ عَلـــَى

بِساطِ نُــورٍ مِنَ الأزْهـــارِ مُـنْتَسَجِ

وفي مساحِـــــبِ أذيَال النَسِمِ إذَا

أهْدَى إلَيَّ سُحَـــيْرًا أطْيَـــبَ الأرَجِ

وفِي الْتِثَامِي ثَغْرَ الكأْسِ مُرْتَشَفَا

رِيقَ المُدامَةِ، فِي مُسْتَـــــنْـزَهٍ فَرَجِ*.*(إبن فارض، 1913، ص86).

لم يقتصر التأمل والتغني بالطبيعة على شعراء الصوفية فقط، بل عني بها العديد من الشعراء المعاصرين، مع مطلع القرن 18م ظهر في الأفق أدب يهتم بالإنسانية، ويدعو إلى الثورة، ويستنجد بالخيال ويتأمل في الطبيعة، فجاءت الرومنتيكية التي أوجدتها ظروف الحياة آنذاك لتعلن ثورة ضارمة على النظام الكلاسيكي من أجل التغيير، الذي بدوره مس الأدب وفنه، فكانت الرومنتيكية هي الأنسب لتأدية وظيفة سامية، لطالما سعى الشعراء لتجسيدها على أرض الواقع، وذلك لاعتمادها على الخيال والأحاسيس "فالرومنتيكي يعلي الأحاسيس على القوى العقلية، والغريب على المعهود، والحيوية على الخمول، والبحث عن المطلق فوق ما هو موجود الآن وهنا".(ابراهيم منصور، 1999، ص84).

سعى الشعراء الرومنتيكيون لمعانقة الملأ الأعلى، وذلك بخوض غمار كل ما هو باطني، هذا ما جعل الغموض يلف الرومنتيكية لتصبح « فكرة غامضة إلى حد عضال، يرجع إلى إخفاء التجارب التي تتحدث عنها، وتحدى لدى استعمالها بوجه عام لوضع أو مناظر معينة توحي بدورها بجو معين، فالغابات والشواطئ الصخرية، والجبال وغدير المياه والكهوف، والجبال المكسوة بالجليد، والرحاب الفسيحة في البحر أو السهول ورعب القبور في الليالي المقمرة، كل هذه المشاهد توحي برحابتها أو وحشتها بالجو الرومنتيكي الصميم».(ابراهيم منصور، 1999، ص84).

عالج شعراء الرومنتيكية قضاياهم باعتمادهم عالم الخيال وابتعادهم عن العقل، لأن الخيال يملك قوى خارقة لا يستطيع العقل مضاهاتها، « إنهم يرون أن الخيال إنما يكشف نوعا من الحقيقة، وهم يرون أنه حين ينشط يرى أشياء يعمى العقل العادي عن رؤيتها، وإنه يتصل اتصالا وثيقا بالبصيرة أو الشعور أو الحدس».(ابراهيم منصور، 1999، ص84).

هذا ما يدفعنا إلى القول أن الرومنتيكيين ساروا على نهج الصوفيين، فكانت لهم نزعة صوفية حتى وإن لم تكن دينية محضة.

شكلت الطبيعة ميداناً مناسبا للرياضة الروحية لدى الرومنتيكيين، فكانت المخلص لهم من كل الضغوطات، فكان فناؤهم لها بمثابة دين جديد له طقوسه وتراتيله، تتمظهر من خلال الجبال والبحار والحدائق والأشجار، الوديان والأنهار.

تعد الطبيعة « مقرا للروح والجسد، فوجد الشاعر الطبيعة المكان الأنسب الذي يناسبه ويخفف عنه ضيق العيش وقسوة الحياة، والإنسان الذي ينسجم مع الطبيعة، ويحل بها نفسا وجسدا، جزءا منها يعيش معها وتعيش معه، والطبيعة مصدر إصدار الشاعر يستلهم منها الحياة وكل ما فيها من تأمل وفكر وفلسفة، فهو يضفي على الطبيعة الحياة بل ويتصور فيها روحا كالإنسان يناجيها فتتجاوب معه، ويناقشها فترد على نقاشه».(واصف أبو الشباب، 1988، ص159).

يعتمد الشاعر عند تأمله في الطبيعة على الإيحائية والتشخيص، وذلك بإضفاء الحياة على الجماد، واعتماد الرمز القائم على الصفات الإنسانية، فيكون بهذا «تجانس بين العالم الكبير (الطبيعة) والعالم الصغير (الإنسان)، فالكمال الإلهي يدرك تفصيلا في الأول، وجملة في الثاني».(حميدة البلداوي، 2011، ص157).

يميل الشعراء للنزوع إلى الغاب والتأمل في صور الوجود والتي ما هي « إلا مظهر التجلي الإلهي وظل الحق»(حميدة البلداوي، 2011، ص156)، فكل ما فوق الوجود « كلمات الله التي لا تنفذ».(حميدة البلداوي، 2011، ص156).

اهتم الشعراء العرب منذ القدم بالطبيعة ومناظرها، إلاّ أن تغنيهم بها وقف عند حدود وصف الملموس، دونما اعتماد الخيال، فكانت مجمل تعابيرهم مجرد تصوير خارجي لا نشوة فيه، فجاءت الرومنتيكية لترتمي في أحضان الطبيعة وتتحلل فيها، فالشاعر يتجاوز المحسوس إلى اللامحسوس، لينغمس في عالم الشعور والمثل، فرومانسية وعبقرية الشابي دفعته إلى الغاب، لأنه يدرك أن الروح الإلهية تتجسد من خلال المشاهد الطبيعية، فيقول: «... أما أحسستم... وأنتم بين أحضان الطبيعة بذلك الشعور القوي الغامض الثمل يستحوذ على مشاعركم ويستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ أي شيء يا ترى هذه القوة الساحرة التي تسكر كل شيء وتعبث بكل شيء؟ إنها هذا الروح الإلهي النبيل الذي تبصرونه في السماء والماء والنور والفضاء، وفي الوردة الناضرة والنسمة الطائرة وفي حالة الموج ووميض النجوم، إنه الجمال الخالد المعبود أحس به أهل بابل فعبدوه في (عشتروت) وشعر به اليونان فقدسوه في (أفروديت) واستفز قلوب الرومان فمجدوه في (فينيس) وأقامت له الإنسانية كلها معابد المجد في أعماق القلوب...».(أبو القاسم الشابي، 2012، ص27، 28).

إن الشابي في كتابه الخيال الشعري عند العرب يدرك أن جمال الكون هو الذي يستفز الأحاسيس والشعور، وينطق الشاعر، ويرى أن التغني والتغزل بالطبيعة أقرب إلى العرف الغربي الرومانسي منه إلى العرف العربي، فالشعر العربي الكلاسيكي اهتم بالطبيعة مظهرا دون إعطاء اعتبار للعلاقة التي تربط روح الشاعر بروح الطبيعة، هذا ما عبّر عنه بقوله: «تبينوا الفرق بين الرنة العربية الساذجة البسيطة وبين الرنة الغربية العميقة الداوية.(أبو القاسم الشابي، 2012، ص39). معجبا بقول لامرتين: « إنّ الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفيه أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتشر ورقها على القبور، وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده».(أبو القاسم الشابي، 2012، ص39).

هناك من الشعراء من يتغنى بالطبيعة من جانبها السطحي فقط، فيراها حقل من اللوحات الفنية المبهرة، أوجدتها يدي الخالق المبدع، غير أن هذه اللوحات الرائعة تفتقر إلى «إحساس الشاعر الخاشع المتصوف الذي يصف الطبيعة وصف العابد لروعة معبوده، وفي هذا الإحساس الأخير يقف الشابي قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين».(خليفة التليسي، 1978، ص75).

أثار الشابي الخلوة واعتزال الناس، وذلك لعمق الجفوة بينه وبين مجتمعه، فالركون إلى الطبيعة مزاج ميز الشابي الذي يطمح إلى المثالية وطهارة العيش من أجل تحقيق السعادة الأبدية، ولا بديل لغير الغاب لأنه هو الميدان الذي تتنفس فيه ذاتية الشاعر، وتستريح فيه قريحته، ليتأمل في نفسه وفي كل ما يحيط به، خلوة يستطيع الشاعر من خلالها غور المجهول ومعانقة الوجود، يقول في قصيدة (النبي المجهول):

**إِنَّنِي ذَاهِبٌ إِلَى الغَــــابِ عَلِيَّ**

**فِي صَمِيمِ الغَابَاتِ أدفُنُ بُؤسِي**

**ثُمَ أَنْسَاكَ مَا اسْتَطَعْتُ، فَما َأَنْتَ**

**بِــأَهْلٍ لِخَــــمْرَتِي ولِكَـــأْسِ**

**ثُمَ تَحْتَ الصَّنَوْبَرِ، النَاضِرِ، الحُلُوِ**

**تَخُطُّ السُيُولُ حُفرة رَمْسِــي**

**وَتظَّلُّ الطُيُور تَلْغُو عَلَـى قَبْــــــــــــرِي**

**وَيَشْدُو النَسِيم فَوْقِي بِهَمْس**.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص249، 250).

عانى الشابي من تنكر شعبه له، ووصفهم إياه بالجنون، هذا ما أوجد لديه ظمأ شديد إلى الغاب، حيث نسيم الصباح، وسحر الليل،وشذا الزهور، ومياه الجداول والأنهار، هذا هو الخيال، حيث يطمئن الشاعر ويسكن، في هذا العالم السامي، ليعلن اتحاده في الطبيعة كما تحل الروح في الجسد، وتصبح الطبيعة محرابا والشاعر كاهنا أو ناسكا متعبدا يقول الشابي:

**طَالَمَا خَاطَبَ العَوَاصِفَ فِي الَليْلِ**

**وَنَاجَى الأَمْوَاتَ فِي غَيْرِ رَمْسِ**

**طَالَمَا رَافَقَ الظَلَام إِلَى الغَابِ**

**وَنَادَى الأَرْوَاحَ مِنْ كُلِ جِــــنْسِ**

**طَالَمَا حَدَثَ الشَيَاطِينَ فِي الوَادِي**

**وَغَــــنَى مِـــنْ الــــرِيَاحِ بِجَـــــــــرْسِ.**

**إِنَّــــــــــــــهُ سَاحِرٌ تُعَلِّمْهُ السِحْرَ**

**الشَيَاطِينُ، كــــلّ مَطْـــلَعِ شمـــس**

**فَإِذَا أَقْبَلَ الظَلَام وَأَمْسَتْ**

**ظُلَمَاتُ الوُجُودِ فِي الأَرْضِ تُغْسِي**

**كَانَ فِي كُوخِهِ الجَمِيلِ مُقِيمًا**

**يَسْأَلُ الكَوْنَ فِي خُشُوعٍ وَهَمْسِ**

**عَنْ مَصَبِّ الحَيَاةِ، أَيْنَ مَدَاه؟**

**وَصَـــــــــــــمِيمِ الوُجُودِ، أَيَّان يُرْسِــــي؟**.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص251، 252، 254).

شعر الشابي غنيٌّ بمحطات الجمال، لأنه خرج عن المعهود، فلم يغني لجمال الصورة والشكل، وإنما ذهب إلى الجمال السرمدي حيث الصياح الجديد، والسماء الضحوك، والليلة القمراء، والأفق الجميل، والجدول الجاري، وشفق السحاب، والورود الغصة، ووهج الصيف والخريف الحزين، والربيع الجديد، وأريج الأزهار، ونور الضحى، والمروج الخضراء.

يتأمل الشابي في الطبيعة بإضفاء أحاسيسه عليها، فهو يبدع في وصفها المعمق وهذا يكشف عن سيطرة الغاب على الشابي، ويدل على أن الشاعر«يعبد الطبيعة عبادة عميقة تصل إلى درجة الفناء في جمالها الأخاذ».(خليفة التليسي، 1978، ص75) ، فهو بهذا يحذو الحذو الرومانسي الذي يقوم على المبادئ الصوفية التي تناشد الحب الإلهي، وتقاطع الحياة المادية، وتسمو بالحياة الروحية، «فثمة اعتبارات دينية وميتافيزيقية تؤكد إمكانية التشابه بين الرومانسيين ومتصوفة الإسلام أمثال ابن عربي».(ابراهيم المنصور، 1999، ص84).

إن عبقرية الشابي الرومانسية هي من دفعت به إلى الغاب، هروبا من المدينة، فقد وجد في الغاب زادا لحياته المضمحلة، فانعزل في الطبيعة البكر، وأعلن هيامه بالغابات، وعشق الوحدة والتأمل، وذاب في الجمال، فحيث الجمال يقيم الله، كل هذه الطقوس تتماشى وطريقة الحياة الصوفية.

إن الغاب رمز للسكون والمحبة والخلود في الأبدية، فهو الحديقة المثلى التي تمثل رياض الخلد، كل هذه الرموز تمثل رموز الصوفية الشعرية، التي نتنسمها في شذا الورود، ونسمعها في حثيث الأوراق، إن رجوع الشابي إلى الغاب « أشبه شيء بدين جديد، أو حكة صوفية...».(ابراهيم المنصور، 1999، ص84)..

تعد الطبيعةالأرض النموذجية للشابي، والغاب موطنه الأبدي، فهو معبده الذي ينعزل فيه، وتغترب فيه روحه لتسبح في فضاء الغاب الأسطوري، فتصل تجربته الروحية إلى درجة التوهج الصوفي، يقول الشابي في قصيدته (النبي المجهول):

**وبعيدا.،ً هُنَاكَ.. ،فِي مَعْبَدِ الغَــابِ**

**الذِي لَا يَظِـــلُّه َأيَّ بُـــــــــــــــؤْسِ**

**فِي ظِلَالِ الصَنَوْبَرِ الحُلُوِ، والزَيْتُونِ**

**يَقْضِي الحَيَاة: حَرْسًا بِحَرْسِ**

**يَا لَهَا مِنْ مَعِيشَةٍ فِي صَمِيمِ الغَــابِ**

**تُضْحِي بَيْنَ الطُيُورِ وَتُمْسِي !**

**يَا لَهَا مِنْ مَعِيشَةٍ، هِيَ فِي الكَـــوْنِ**

**حَيَاةٌ غَـــــرِيبَةٌ، ذَاتُ قُـــدُسِ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص255، 256).**

اتصل الشابي بعالم الطبيعة من أجل تبديد غربته، وشوقه الدائم لمعانقة عالم الكمال، فامتلأ فراغه الروحي بركونه إلى الغاب (الجنة الأرضية العجيبة)، وأضفى عليها أفكاره الفردوسية، فجنة الشابي جنة مثالية، فهي « صورة مصغرة عن الجنان القرآنية المسكونة بالحب الإلهي والسعادة».(محمد كرو، 1984، ص222).

أفاعي الجنان ! تناولتها أساطير القدامى من الحضارات السومرية واليونانية والمصرية، حتى قصة خروج آدم وحواء من الجنة مثلتها العديد من النقوش على اللوحات والأواني، فنقشت الأفعى تلازم الشجرة، وفي (فردوس ميلتون) الضائع Paradise Lost، الأفعى كانت رفيقة إبليس، وهذا دلالة ورمز على وجود قوى الشر داخل الجنة، مثلت من خلال إبليس والأفعى، هذه القوى هي من تثير الصراع بين الخير والشر، وتنشر الدمار، ولكن أسطورة الشابي تختلف، فهو أراد للخير أن ينتصر في جنته، بل أراده أن يتربع عليها وحده، لذلك جعل جنته في منأى عن عناصر الظلم الضعيفة، ليضع حدا للصراع في فردوسه الذي كان أرضا للخير والطهارة والنبل والبراءة والحب والجمال فقط.(سلمى الجيوسي، 1975، ص21).

يناشد الشابي الحياة المثالية، ويجعل مدينته الفاضلة مدينة الشعور والعواطف، ويدعو الناس لتشييد هذه المدينة العظمى بناء على العاطفة، كيف لا وهو ينتمي إلى عصر الرومنتيكي عصر الشعر والعاطفة على حد تعبير (إرفنج بابيت).(ابراهيم منصور، 1999، ص84) ، يقول الشابي في قصيدته (فكرة فنان):

**عِشْ بِالشُعُورِ، وللشُّعُورِ، فَــإِنَّمَا**

**دُنْيَاكَ كَوْنُ عَوَاطِفٍ وشعــــــــور**

**شِيدَتْ علَى العَطْفِ العَميقِ وَإِنَّهَا**

**لَتَجِفُ لَوْ شِيدَتْ عَلَى التَفْكِير.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص319)**

إن تغزل الشابي بالغاب ارتبط بعاطفة الحنين إلى العالم السرمدي وإلى الروح الإلهية، «فالحنين إلى الطبيعة يرتبط بالحنين إلى الألوهية، هذا الحنين المزدوج الذي يغذي تجربة الحب الصوفي يعني إحساسا بغياب ما أو بوجود فراغ في الوجود الإنساني ووعيه ويحاول الصوفي ملأه، ومن هنا كان كل تأمل وافتنان بمشاهد الجمال الطبيعي يعني في عمقه كما يرى باشلار تعويضا لغياب مؤلم وملأ لفراغ ينخر الإنسان ووجدانه».(آمنة بلعلى، 2010، ص79، 80).

قامت فلسفة الشابي التأملية على الخيال، هذا العالم الباطني الذي يعلي الأحاسيس ويسمو بها، وبهذا أفصح الشابي عن بعده الصوفي من خلال اتجاهه الشعري الرومانسي، فكلا من الصوفيين والرومانتيكيين «يرفض التفسير الميكانيكي للعالم على أساس أنه تفسير يتغافل عن الدور الذي يلعبه الوعي الداخلي والتجربة الروحية للإنسان، وكلا الفريقين يرى أن إثبات العالم ووصول إلى إدراك المطلق، إنما هو أمر يعتمد على الذوق والتجارب الروحية أكثر مما يعتمد على العقل أو المنطق».(إبراهيم منصور، 1999، ص85). كل هذا موجود في الغاب، بلاد الخيال والإبداع، يقول الشابي في قصيدته (الغاب):

**فِي الغَابِ، دُنْيَا للخَيَالِ، وللرُّؤَى**

**والشِعْرِ، والتَفْكِيرِ، والأَحْلاَمِ.(أبو القاسم الشابي،**

تشتمل الطبيعة خفايا ومكنونات، تعجز الذات عن فهمها وتبصرها، إلا إذا تحصنت النفس بابتعادها عن الرذائل والعيوب، « فالنفس إذا تجردت من هذه الأدران بلغت النسبة النورانية الكاملة، بلغت مستوى الطبيعة، بلغت ذات الله».(إلياس أبو شبكة، 2012، ص11).

جاءت دعوة الشابي لاقتحام أسرار هذا الوجود، من أجل بلوغ ذروة التصوف، فيقول في قصيدته (فكرة الفنان):

**وافْتَحْ فُــــــــؤَادَكَ للوُجُودِ، وخلِّه لليمِّ، للأَمْــــــوَاجِ، للدَّيْجـُــورِ**

**للثَّلْجِ تنثــُـرُهُ الزوابــــعُ للأَسَـــــــــى، للهَــــوْلِ، للآلَامِ، للمَــقْــدُورِ**

**و اتْرُكُهُ يَقْتَحِمُ العَوَاصِفَ، هَاِئمًا فِي أُفُقِهَا، المُتَلَّبِدِ، المَقْــــرُورِ**

**وَيَخُوضُ أَحْشَاءَ الوُجُودِ، مُغَامِرًا فِي لَيْلِهَا المُتَهَيِّبِ، المَحْـــذُورِ**

**حَتَّى تُعَاِنقْهُ الحَــيَاةُ، وَيَـــــرْتَوِي مِنْ ثَغْرِهَا المُتَأَجِّجِ، المَسْجوُرِ**

**فَتَعِيشُ فِي الدُنْيَـا بِقَلْـــبٍ زَاخِــرٍ يَقِظِ المَشَاعِرِ، حَالِمٍ، مَسْحُـورِ**

**فِي نَشْوَةٍ صُوفِيَـَّـةٍ، قُـــــدُسِيَّةٍ هِيَ خَيْرُ مَا فِي العَالَمِ المَنْظُورِ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص322، 323).**

تغرب الشابي واعتزل مجتمعه الدنيء، فأعلن نزوحه على الغاب ليحي حياة صوفية، يتواصل من خلالها بالملأ الأعلى فتتبخر غربته، وتمتلئ روحه، وتندمج مع العالم السرمدي الجميل حيث الحب والسكينة، يقول الشابي في قصيدته ''بقايا الخريف'':

**كَرِهْتُ القُصُورَ، وَقُطَّانَهَا، وَمَا حَوْلَهَا مِنْ صِـــــرَاعٍ عَنِـــــــــــــــــيف**

**…………………………………**

**فَسِرْتُ إِلَى حَيْثُ تَأْوِي أَغَاِني الرَبِيع، وَتَذْوِي أَمَاِني الخَرِيفْ**

**وَحَيْثُ الفَضَاء شاعرٌ حالِمٌ، يُنَاجِي السُهُول بِوَحْـــــــيِ طَرِيــــــــــف.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص171).**

ينسجم (الشابي) في معبده، ويناجي الغاب مناجاة روحية، ليتخلص من غربته، فنفسه تتوق للغاب كشوقها لحصن الأم، فالغاب هو ملاذه السامي الذي يقيم فيه عباداته ومناسكه، يقول الشابي في قصيدته (قيود الأحلام):

**فِي الغَابِ، في الجبلِ البعيدِ عَنِ الوَرَى**

**حيثُ الطبيعةُ، والجَمَالُ السَامِي**

**وَأَعِـــيشُ عِيــــــشَةَ زَاهِدٍ مُتَنَسِّــــــكٍ**

**مَا إِنْ تُدَنِّسْــــــــهُ الحَـــيَاةُ بِذَامِ**

**هَجَرَ الجَمَــــــاعَةَ للجِبـَـالِ تورُّعاً**

**عَنْهَا وَعَنْ بَطْــشِ الحَيَاةِ الدَامِي.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص288، 289).**

يناجي الشاعر معبده الروحي، من أجل أن تتجانس روحه وروح الطبيعة، فتتطهر نفسه وتمتلئ سكينة وحبا وعطفا وجمالا ونوراً، يقول (الشابي) في قصيدته ''الغاب'':

**وَهَتَفْتُ: (يَا رُوحَ الجَمَالِ تَدَفَّقِــي**

**كالَنّهْرِ فِي فِكْري، وَفِي أَحْلاَمِي)**

**(وَتَغَلْغَلِي كالنُورِ، فِي رُوحِي الِتي**

**ذَبُلَـــــــتْ مِنَ الأَحْزَانِ والآلَامِ).**

**(أَنْتِ الشُّعُورُ الحَيُّ يَزْخَرُ دَافِقاً كَالنّارِ، فِي رُوحِ الوُجوُدِ النَامِي)**

**ويَصُوغُ أَحلام الطبيعة فاجعلي، عُمْـــــرِي نَشِيداً سَاحِرَ الأَنْغَامِ**

**(شَذَى يَصُوغُ مَعَ الأَشِعَةِ والرُّؤَى فِي مَعْبَدِ الحَقِّ الجَلِيلِ السَامِي).(أبو القاسم الشابي، 1972، ص472).**

يشكو الشابي الآلام والهموم، من واقع مرير أدركه البلى، فلبست روحه الأسى والضياع، فتجرد من هذا العالم، ليجعل له موطنا في الغاب يراقب الحياة من خلاله، فالعزلة مقام من المقامات الصوفية التي عزت على نفس الشابي فظلت "أحلام شاعر" يتوق إليها ليحيا حياة قدسية.

**ليْتَ لِي أَنْ أعيــــشَ فِـــي هَـــذِهِ الدُنْــيَا**

**سعيداً بِوِحْدَتِي وانفرادِي**

**أَصْرِفُ العُمْرَ فِي الجِبَالِ، وَفِي الغَابَاتِ،**

**بَيْنَ الصَّنَـــــــوْبَرِ المَيَّـــــــــادِ**

**لَيْسَ لِي مِنْ شَوَاغِلِ العَيْشِ ما يَصْـــــــرِفُ**

**نَفْسِي عَنْ اسْتِمَاعِ فُؤَادِي**

**………………………**

**وَأُنَاجِي النُجُومَ والفَجْر، والأَطْـــيَارَ**

**والنَهْـــــــرَ، والضياءَ الهَادِي**

**عِيشَةَ لِلجَمَالِ، والفَــنِ، أَبْـــغِيهَـــا**

**بَعِيدًا عَنْ أُمَّتِي وَبِلَادِي**

**هَذِهِ عِيشَةٌ تُقَدِّسُــــــــهَا َنفْسـِـــي**

**وَأَدْعُو لِمَجْدِهَــــا وَأُنَادِي.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص285، 287).**

يتجسد الكون من خلال الإنسان، فالكون هو العالم الكبير، والإنسان هو العالم الصغير، يحدث فيه ما يحدث في الكون.

**فِي فُؤَادِي الرَّحِيب مَعْبَـــــــدٌ لِلجـــــــَمالِ.(أبو القاسم الشابي، 172، ص397).**

يمضي الشابي إلى الغاب بعد أن أسقمه واقعه المرير، ليبحث عن فردوسه المليء بآلهة الحب والجمال، أرض عجيبة لا يندثر ربيعها الزاهي بأوراق السعادة الأزلية لتتحقق الأسطورة الصوفية في (الغاب):

**لِلَّهِ يَوْمَ مَضَيـْـــــــــتُ أَوَّلَ مَــــــــــــرَّةٍ لِلغَابِ، أرزحُ تَحْـــــــــتَ عِبْء سِقَامِي**

**وَدَخَلْتُهُ وَحْـدِي، وَحَوْلِي مَوْكِبٌ هزجٌ، مِنَ الأَحْــــــلَامِ والأَوْهَـــــــــــــــــــــــامِ**

**وَمَشَيْتُ تَحْتَ ظِلَالِهِ مُتَهَيِــبًــــــا كَالطِفْلِ، فِي صَمْتٍ، وَفِي اسْتِسْلَامِ**

**……………………………………….**

**فَإِذَا أَنَا في نشـــــــوةٍ شعريـَّـــــــــــــــةٍ فـيّاضةٍ بِالــــــــــــــــوَحْيِ والإِلْـــهَــــــــــــــــــــامِ**

**وَمَشَاعِرِي فِي يَقَظَةٍ مَسْحـُـورَةٍ ................................**

**وَسَنَى كَيَقَظَةٍ آدَمَ لَمَّــــا سَرى فِي جِسْمِهِ رُوحَ الحَيَاةِ النَامِــــــــــــــــي**

**وَشَجَتهُ مُوسِيقَى الوُجُـــــودِ،وعَانَقَتْ أَحْلَامَه فِي رِقَةٍ وَسَـــــــلَام**

**وَرَأَى الفَرَادِيسَ، الأَنيقَة تَنْثَنِـــــــــي ، فِي مُتْرَفِ الأزهارِ والأَكْمَــــــــــــامِ**

**وَأَرَى المَلاَئِكَ كَالأَشِعَّة فِي الفَضَا تَنسَابُ سَابِحَةً، بِغَيْرِ نِظَــــــــــــــام**

**وَأَحَسَّ رُوحَ الكَوْن تَخْفُقُ حَوْلَــــــــهُ فِي الظِّلِّ، والأَضْوَاءِ، والأَنْسَامِ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص265).**

عانت روح الشابي من الخواء والفراغ، حتى العياء، فهرب إلى الغاب لترتاح روحه وجسده في عالم الجمال بعيدا عن المدينة.

**عِيشَةً لِلجَمَالِ، والفَـــــنِ، أَبْغِيهَا**

**بَعِيـــــــدًا عَنْ أُمَّتِــــــــي وَبِـــــلَادِي**

**……………………………………….**

**وَبَعِيدًا عَنْ المَدِينَةِ، والــــنَاسِ**

**بَعِيدًا عَنْ لَغْوِ تِلْكَ النَـــــــــــوَادِي**

**هَذِهِ عِيشَةٌ تُقَدِّسُـــــهَا نَفْسـِــي**

**وَأَدْعُو لِمَــــجْــــــــدِهَا، وَأُنَـــــادِي.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص287).**

الكون مقدس بطهارته، ومحرابه الغاب، ولا يجد الشابي أقدس من الكون ليقيم فيه عباداته وصلواته.

**والكون من طهر الحـياة كأنما هو معبدٌ، والغاب كـالمحراب.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص486).**

إنّ الكون نغمة أنشدتهــــــــــا قيتارة الله، فكانت لحنا موزونا

**فإذا الكون قطعة من نــــــشيد علـــــويّ، منـــــــغم، موزون.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص415).**

هذه الألحان العلوية، أحبها الشابي، وذاب في سحرها، فهي (نشيد الجبار):

**أُصْغِي لِمُوسِيقَا الحَيَاةِ وَوَحْيِهَا وَأُذِيبُ رُوحَ الكَوْنِ فِي إِنْشَائِي. (أبو القاسم الشابي، 1972، ص441).**

فهو سعيد لأنه ترك عالم الآثام والبغضاء، ليرتمي في أحضان الغاب الذي سيحفل فيه بالوحي المقدس، ليكون في منأى عن حجارة الأعداء:

**فَأَنَا السَعِيدُ بِأَنَّنِي مُتَحَـــــــــــــــــــــــــــــــــوِّلٌ عَنْ عَالَــــــــمِ الآَثامِ وَالبَغْضَاءِ**

**لِأَذُوبَ فِي فَجْرِ الجَماَلِ السَرْمَدِيِّ وَأَرْتَــــــوِي مِنْ مَنْهَلِ الأَضْوَاءِ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص444).**

عشق الشابي الغاب وعبده، لأنه رحبُ لم تدسه الذئاب وتدنسه.

**إِنَّ فِي الغَابِ أَزَاهِيرًا، وَأَعْــــــــشَابًا عِذَابْ**

**………………… ………**

**لَم تُدَنِّسْ عِطْرَهَا الطَاهِر أَنْفَــــــــاس الذِئَابْ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص376).**

وجد الشابي في الغاب الدعة والاطمئنان الذي أطلق العنان لقريحته الشعرية، فجاءت دعوته صريحة لكل شاعر يبحث عن نشوة شعرية رحابها الغاب، الذي تتحقق فيه (السعادة).

**وَإِنْ أَرَدْتَ قَضَاءَ العَيْشِ فِي دَعَـةٍ**

**شِعْـــِريَّةٍ لَا يُغَشِّي صَفْوَهَا نَدَمُ**

**فَاتْرُكْ إِلَى النَاسِ دُنْيَاهُمْ وَضَجَّتَهُمْ**

**وَمَا بَنُوا لِنِظَامِ العَيْشِ أَو رَسَمُوا**

**واجْعَلْ حَيَاتَكَ دَوْحًـــــــا مُزْهِـــرًا**

**فِـــي عُزْلَةِ الغَابِ يَنْمُو ثُمَ يَنْعَدِمُ.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص370).**

جعل الشابي من الغاب معبدا له ولحبيبته، لأن الحب فيه نبراس منير، والسكن (تحت الغصون) مثير.

**وَسَكَتْنَا،وَغَرَّدَ الحُبُّ فِي الغَابِ، فَأَصْغَى حَتَى حَفِيفُ الغُصُون**

**وَبَنَى اللَّيْلُ والرَّبِيعُ حَوَالَـــــــيْنَا مِنَ السِّحْرِ والرُّؤَى والسُكــُـــــــــــون**

**مَعْبَدًا لِلجَمَالِ، والحُبِّ شِعْرِيًّــــــا، مُــــــــشِيدًا عَلَى فِجَاجِ السِنِين.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص421).**

يعانق الشابي وحبيبته العالم الروحي، لأنهما يعيشان في جنان الخلد، فيجعلا لذاتهما مقاما أشبه بمقامات الصوفية يعزفان فيه ألحانا سكرى.

**نَحْنُ نَحْيَا فِي جَنَةِ مِــنْ جِنَانِ السِحْرِ فِـــــي عَــــــالَـــــمٍ بعيدٍ...، بعيدِ....**

**نَحْنُ فِي عُشِّـــــــنَا الــــــــمــــورّد، نَتْــــــــــــلُو سور الحُبِّ للشَّبَابِ الــــــــسَعِيدِ**

**قَدْ تَرَكْنَا الوُجـُـــــــودَ لـلـــنَـــــــاسِ، فَلْيَقَضُوا الحَيَاة كَيـْــــفَ أَرَادُوا.(أبو القاسم الشابي، 1972، ص402).**

وفي موقف آخر نجد الشابي يتحسر على الجنة الضائعة، وهذه الجنة اقترنت بزمن البراءة والنضارة بين أحضان الطبيعة بعيدا عن كل ما ينكد العيش ويفسد الوجود، ولكن سرعان ما هوت الجنة وضاعت لأن صاحبها ابتعد عن مثله العليا ونزل إلى حضيض الواقع الشقي.

تتبخر أحلام الشابي بضياع فردوسه، الذي كان يحسبه سرمديا، فأصبحت أغانيه أشبه بـ''أغاني التائه'' الذي تاه بعدما أضاع محرابه الذي كان يسجد فيه.

**أَيْنَ نَايِي؟ هَلْ تَرَامَتْهُ الرِيَاحْ؟**

**أَيْنَ غَابِي؟ أَيْنَ مِحْرَابَ السُجُود...؟ (أبو القاسم الشابي، 1972، ص223).**

بنى الشابي فلسفة حياته من خلال تأمله في الطبيعة، فمظاهرها تتماشى وأحاسيسه، فصبغها بألوان تجاربه فهي سعيدة بسعادته، وشقية بشقائه، كيف لا والشعر وليد الطبيعة وفي أحضانها ترعرع.

قائمة المصادر و المراجع:

1- إلياس أبو شبكة،أفاعي الفردوس،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د.ط، 2012م.

2- الشابي أبو القاسم، ديوانه، دراسة وتقديم: عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط، 1972م.

3- ابن فارض، ديوان عمر ابن فارض، المطبعة الحسينية المصرية،مصر،ط1، 1913م .

4- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

5- إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف- الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر-، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999.

6- آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م.

7- حميدة صالح البلداوي، فلسفة التصوف في الشعر الأندلسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 2011م.

8- صابر عبد الدايم، أدب المهجر دراسة تأصيلية تحليلية لأبعاد التجربة التأملية والأدب المهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1993.

9- أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ط.، 2013م.

10- محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، د.ط، 1984م.

11- واصف أبو الشباب، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، دار النهضة، بيروت، د.ط، 1988م.

12- سلمى الخضراء الجيوسي، أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، مجلة الفكر، العدد4، جانفي 1975م.

13- خليفة محمد التليسي، الشابي وجبران، الدار العربية للكتاب، ط4، 1978م.